حاضر العالم الإسلامي

(طبعة جديدة فريدة ومنقحة)

الدكتور علي جريشة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة
١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م

الناشر
دار المجتمع للنشر والتوزيع

جدة : ميدان الجامعة ص.ب ٤٠٨٤٥ جدة ٢١٥١١ ت الإدارة ٦٨٩١٤١٧
المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الخبر : شارع الأمير نايف ص.ب ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ ت ٨٩٤١١٣٦
المدينة : شارع الستين ص . ب ٢٠٢٤٢ ت : ٨٣٨٨٢٩٢
فاكس : ٨٣٨٨٢٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وسلم

مقدمة الطبعة الثالثة (*)

•• هذه الطبعة تأتي – بفضل الله – بعد عام من الطبعة الثانية .
(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .
(وأما بنعمة ربك فحدث) .
يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

* * *

•• وبين يدي هذه الطبعة كانت أحداث حسام .
ففي لبنان محنة ..
وفي الفيلبين محنة ..
وفي المغرب أحداث .
لكن هذا الكتاب اعتمد منهجين :
التنظير أولاً .. وهو ما يصح مع كل الأحداث بإذن الله .
والتطبيق ثانياً .. وهو ضرب للأمثال .. ومن ثم فليس لازماً الإحاطة بكل ما يجري ، لأن التكرار وارد .

* * *

•• وبين يدي هذا الكتاب ، وقبله ، كانت كتب عديدة تتحدث عن تصحيح مفاهيم المسلمين بما يتجه نحو التشديد أو الغلو .

(*) الطبعة الثانية عن دار المجتمع .

وقد سكتنا من قبل أو عالجنا الأمور علاجاً سريعاً (١) .

لكننا رأينا في هذه الطبعة أن نرد على بعض القضايا الملحة ومن بينها قضايا تتعلق بحاضر العالم الإسلامي .

وقد كنا نود أن نسهب في الرد بما يتناسب مع مؤلفات جاوزت الخمسمائة صفحة لكن كمقدمة لكتاب أولاً ، ولظروف ضيق الوقت وكثرة المشاغل ثانياً رأينا الإكتفاء بالكلمات التالية والله المستعان (٢) .

---

(١) راجع ما كتبناه في كتاب الإيمان الحق – الطبعة الثالثة – دار المجتمع .
فضل الإيمان بين إفراط وتفريط .
وكتاب الاتجاهات الفكرية المعاصرة باب الاتجاهات الإسلامية المعاصرة .

(٢) تصدر هذه الكلمات في نفس الوقت كرسالة تحت عنوان (محنة لا إلٰه إلا الله) أو دفاع عن الأجيال .

تمهيـد

١ – المحن فتن ..

والمحن بلاء ..

(ونَبْلُوكُم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (١) .

(لَتُبلَوُنَّ في أَمْوَالكم وأنفسكم ، وَلَتسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتَتَقُوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور) (٢) .

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا وليعلَمَن الكاذبين) (٣) .

٢ – وبرغم أن المحن قدر مقدور **(وكان أمر الله قدراً مقدوراً)** .

وبرغم ما فيها من منح .. من بينها منحة التمحيص ، ومنها النذير للمعتدين بالحق **(وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)** ، وفي الأولى يتبين الصادق من الكاذب ويظهر المؤمن على المنافق **(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)** ، **(وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين)** .

وبرغم أنها تعمق الدعوات في نفوس أصحابها ، فضلاً عن نشرها وإذاعتها إلى غيرهم أي أن الدعوة تتسع أفقياً وتعمق رأسياً .

فضلاً عن الثواب الجزيل عند الله سبحانه وتعالى **(والذين هاجروا من بعد ما ظلموا لنبوأنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)** (٤) **(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)** (٥) .

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

(٣) العنكبوت : ٢ ، ٣ .

(٤) النحل : ٤١ .

(٥) النحل : ١١٠ .

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة . ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [1] .

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) [2] .

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) [3] .

(واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسراً).

وفيما حدث ليوسف من محن ، وفيما أعقب ذلك ، وفيما عَقّب به رب العالمين **(إنه من يتق ويصبر فإنه لا يضيع أجر المحسنين)** .

٣ - نقول برغم ذلك كله فقد أمرنا أن نتقى المحن ما استطعنا ، وأن نسأل الله العافية وأن لا نتمنى لقاء العدو ..!

والأحاديث كثيرة ، ومشهورة بما يقربها من التواتر !

٤ - ومحنة اليوم ليست محنة أشخاص ، إنها محنة مبادىء ، وهي ليست أية مبادىء .. إنها أ.ب الإسلام إنها محنة الكلمة الطيبة : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله فمن قائل (أن الكلمة ليست مفهومة .. حتى لدى أكثر الدعاة) (!!)

إلى قائل (وهي كذلك قد اندثر معناها بعد أن دخلت العجمة إلى اللغة أو دخل العجم الإسلام وقد دخلوا منذ القرن الأول أي منذ خير القرون ، قرن رسول الله ﷺ .

٦ - وفي هذا القول أكثر من اتهام :

إنه اتهام للدعاة أنهم جهلة لا يفهمون (أكثر الدعاة) .

إنه اتهام لأجيال المسلمين السابقة ، وقد أفضوا إلى ربهم وهو أعلم بهم ، أنهم لم يفهموا معنى لا إلٰه إلا الله .

---

(١) آل عمران : ١٤٢ .　　(٣) سورة يوسف : ١١٠ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

إنه اتهام لعلماء المسلمين من هذه الأجيال أنهم لم يفهِّموا الناس لا إلٰه إلا الله بل إنه – وهذا خطير جداً – اتهام لجيل الصحابة الذين لم يقصر الرسول في تعليمهم معنى لا إلٰه إلا الله ، أنهم لم يعلموا مَنْ بعدهم لا إلٰه إلا الله وعلى الأخص الفرس والروم الذين دخلوا دين الله أفواجاً في القرن الأول لأن يفهموا معنى لا إلٰه إلا الله ولا أن يربوا عليها !!!

٧ – والأخطر من هذا كله .

هو اتهام لا إلٰه إلا الله ..

إنها لغز محير ..

إنها طلسم غريب ..

إنها بعيدة المنال حتى على أكثر الدعاة ...

ولم يفهمها إلا قلة قليلة من بينهم أولئك الكتاب هدانا الله وهداهم وحفظنا وحفظهم من كل سوء ..

وفي مقدمته سوء الفهم .

.. فلو أن لا إلٰه إلا الله واضحة .

لما احتاجت إلى ذلك الشرح الطويل والكتب التي وصلت بضع مئتين ولو أنها كانت واضحة ، لفهمها الناس .. فضلاً عن أكثر الدعاة .

حقاً إنها محنة (لا إلٰه إلا الله) .

والأسئلة التي تتوارد لمناسبة ما كتب حول هذا الموضوع خلال الثلاثين عاماً الأخيرة هي :

١ – هل جهل المسلمون معنى لا إلٰه إلا الله ... حتى بلغ الأمر أن جهلها كذلك « أكثر الدعاة » ؟!

٢ – هل سلخ المسلمون مفهوم العمل من مسمى الإيمان ، حتى سيطر فكر الإرجاء .

٣ – هل بدأ الانحراف مبكراً من بعد الخلفاء الراشدين .. أي منذ القرن الأول ؟

٤ – هل وقعت الصحوة الإسلامية فضلاً عن الخطأ في الفهم ، خطأ في الحركة ، وخطأ في المواقف ؟

ونحن نتناول هذه الأمور – علم الله – أولاً حباً للحق الذي ارتضاه الله اسماً له – سبحانه وتعالى – ثم حباً لإخواننا أن يجتمعوا معنا على الطريق فإن العدو يتربص بنا وبهم ، وإن الله سائلنا وسائلهم هل جمعنا أم فرقنا ، هل سددنا وقاربنا أم باعدنا وخاصمنا ..

أولاً هل جهل المسلمون معنى لا إلٰه إلا الله حتى أكثر الدعاة ..؟

٨ - إنها دعوى خطيرة !

إنها إن صحت فهو اتهام لأجيال المسلمين عبر ثلاثة عشر قرناً (على الأقل) أنهم عاشوا غير مسلمين .. وماتوا كذلك غير مسلمين ..؟

لأن الذين قالوا ذلك اتهموا في الوقت نفسه الذين دخلوا الإسلام من الفرس والروم (في الجيل الأول) بأنهم لم يتح لهم من التربية ما أتيح لجيل الصحابة على يدى رسول الله ﷺ ، فضلاً عن أن غيرهم اتهموا هؤلاء وغيرهم صراحة بأنهم لم يفهموا معنى الرب والإلٰه والدين والعبادة .

وإذ كان أولئك المعنيون عاشوا في القرن الأول .. فهو كذلك اتهام لهذا القرن الذي صح فيه عن رسول الله ﷺ أنه خير القرون !

وهي كذلك دعوى تناقض عصمة هذه الأمة الثابتة بالأحاديث المتواترة المعنى والثابتة كذلك بالإجماع ! [1]

٩ - وإذا قيل أن أكثر الدعاة اليوم لا يفهمون معنى لا إلٰه إلا الله ..

فهو كذلك اتهام خطير ..

إن الجانب الآخر فيه .. أن لا إلٰه إلا الله صارت (طلسما) مبهماً ، أو لغزاً غريباً .. عَزَّ فهمه حتى على (أكثر الدعاة) .

وأنّى للعامة أن تفهم من بعدهم معنى لا إلٰه إلا الله ..

وأنّى لهم أن يدخلوا الجنة ، ومفتاحها قد ضاع من أيديهم .. رغم أنهم

---

(١) تحدث في هذه القضية الإمام الشاطبي رضي الله عنه في كتاب الاعتصام ، كما تحدث عنها العلامة الندوي في التفسير السياسي للإسلام الأحاديث المشهورة : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها – المرجع التالي ص ٤٢ وما بعدها ...

يرددون لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ، ويحجون البيت ويجاهدون ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطالبون بإقامة شريعة الله ؟!

ونحن نتساءل :

١٠ – ماذا كان يقبل رسول الله ﷺ من الناس إن دعاهم للإسلام ..؟

وإذا صح أن الذين دعاهم عرب ، فماذا كان يقبل من العجم أو ماذا كان يقبل صحابته منهم وصحابته عدول رضي الله عنهم ..

إن الرسول ﷺ صح عنه : « **قولوا** لا إلٰه إلا الله تفلحوا » (١) .

وقال لعمه عند احتضاره : أي عَمِّ **قل** لا إلٰه إلا الله كلمة أحاج – وفي رواية أشهد – لك بها عند الله » (٢) .

وإذا صح أن معاني الألوهية ، والعبادة ، ... كانت واضحة عند نزول القرآن وعند دعوة رسول الله ﷺ بها ...

– أفلا تكون كذلك بعد أن وضحها القرآن .. أكثر وأكثر ، وسارت بها آياته في مشارق الأرض ومغاربها (٣) .

– وهل وقفت « العُجْمة » دون فهم القرآن ، وقد ثبت أن أكثر المفسرين ، والنحاة ، والعلماء كانوا من العجم لا من العرب .. ومن الصدر الأول للإسلام ؟!

– وماذا كان عند الجارية التي شهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان .. إلا أنها عرفت أن الله في السماء .. وأن محمداً هو رسول الله ﷺ (٤) .

– معنى ذلك أننا نريد أن نقول إن مجرد القول يكفي لدخول الإسلام ، أما الفهم فيأتي تبعاً ، ويختلف من شخص إلى آخر ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) متفق عليه (رواه البخاري ومسلم) .

(٣) دعاة لا قضاة – الإمام المستشار حسن الهضيبي – رحمه الله –

(٤) الحديث رواه مسلم – رضي الله عنه –

١١ – ومن قال إن الألوهية .. تعنى فقط (الحاكمية) ، أو (أن الحاكمية أخص خصائص الألوهية) .

وعند ابن تيمية – رضي الله عنه ، ونحسبه ممن فهموا لا إلٰه إلا الله – (**الإلٰه** الذي يألهه القلب بكمال **الحب**، **والتعظم** ، **والإجلال** ، **والإكرام** ، **والخوف** ، **والرجاء** ، ونحو ذلك) [١] .

« لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى **الذل** ، ومعنى **الحب** ، **فهي** تتضمن **غاية الذل** لله تعالى ، بغاية **المحبة له** ».

– والحاكمية (كمصدر صناعي من الحكم) ظهرت ترجمة للنظر Sovereignty وتساوي في الفرنسية – Soverenté .

وهي تتضمن معنى الإخضاع ، أكثر مما تتضمن معنى الحب ، ومن ثم فالقول بأن الحاكمية هي الألوهية أو أخص خصائص الألوهية ، قول محل نظر [٢] .

والأولى في ذلك الرجوع إلى ما كان عليه السلف – رضي الله عنهم – إنهم فهموا من الألوهية – كما ذكر ابن تيمية – معاني الحب ، والتعظيم والإجلال ، والإكرام ، والخوف والرجاء ...

والحب يتقدم الخوف ، والرجاء يختلط بالخوف .

وكل هذه أعمال قلب .

وإعطاء الحكم لله سبحانه (إن الحكم إلا لله) هو ثمرة لازمة ، ونتيجة حتمية لتوافر عمل القلب هذا .

ولذا كان اهتمام الرسول ﷺ بالقلب (التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا) [٣] قالها ثلاث مشيراً إلى صدره الشريف ، ومعه (ألا إن في

---

(١) رسالة العبودية لابن تيمية – رضي الله عنه –

(٢) راجع الأستاذ (العلامة) أبا الحسن الندوي – التفسير السياسي للإسلام ، د. الإمام المستشار حسن الهضيبي – رحمه الله –

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود والترمذي ومالك .

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [1] .

ونود أن نقرر لهؤلاء الكتاب الكرام حقيقة : أن لا إلٰه إلا الله مفهومة على الأغلب الأعم على مدار التاريخ ، وأن المسلمين الذين حكموا بالإسلام على مدى ثلاثة عشر قرناً كانوا يفهمون أن رد الأمر إلى الله والأخذ من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ **ثمرة لازمة** للاإلٰه إلا الله وأن الفترة التي ربما سادها الغبن هي قُبَيل إلغاء الخلافة وبُعَيْدها ، أما بعد ذلك فقد كان للحركة الإسلامية الكبرى – بعد الله – فضل نشر فكر (الإسلام دين ودولة ، عبادة وقيادة ، مصحف وسيف ..) ومعها القرآن دستورنا [2].

١٢ – **يقول عَلَم من علماء عصره** [3] تحت عنوان (التوحيد المأمور به)
إنه توحيد اعتقادي علمي ،
وتوحيد عملي سلوكي :

وبعبارة أخرى : هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر : توحيد في المعرفة والإثبات وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة .

فلا يقبل إيمان امرىء عند الله ما لم يقم بتوحيده سبحانه : علماً واعتقاداً بأنه يؤمن بأن الله تعالى متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحيده كذلك : **قصداً وعملاً** ، بأن يفرده عز وجل **بالعبودية** الكاملة ، **والطاعة** المطلقة ، **والذل** له ، **والإنابة** إليه ، **والتوكل** عليه ، **والخشية** منه **والرجاء** فيه .. إلخ .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة .

(٢) وجود قلة غير فاهمة ليس حجة على الأكثرية إذ الاستثناء لا حكم له ، وهو غير ما ذهب إليه بعض الكتاب إلى أن الأكثرية هي غير الفاهمة بل أن أكثرية الدعاة كذلك غير فاهمة .

(٣) هو الأخ الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي ، تخرج في الأزهر الشريف – وواصل حتى وصل إلى درجة الدكتوراة في الفقه ، وهو في ظننا ولا نزكيه على الله أهل للاجتهاد ، فضلاً عن أنه مارس العمل الإسلامي من داخله ولم يكن متفرجاً ولا ناقداً له من خارجه – رسالة حقيقة التوحيد .

[وقبل هذا كله من وجهة نظري : الحب الخالص له سبحانه] .

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة الإخلاص بتمامها ، وأول سورة آل عمران ، وأول سورة طه ، وأول سورة السجدة ، وأول سورة الحديد ، وآخر سورة الحشر وغيرها .

والتوحيد بالمعنى الثاني هو ما تضمنته ، ودعت إليه ، ودلت عليه سورة : (**قل يا أيها الكافرون**) ، وجملة سورة الأنعام ، وأول سورة الأعراف وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها ، وأول سورة الزمر وأواخرها وغالب سور القرآن .

بل قال العلامة ابن القيم : إن كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد وقد جرى **كثير من المصنفين** قديماً وحديثاً على تسمية النوع الأول من التوحيد : توحيد الربوبية ، وعلى تسمية النوع الثاني توحيد الألوهية أو الإلٰهية ... [1] .

وفي مكان آخر [2] – تحت عنوان : بماذا يتحقق التوحيد ؟ كتب يقول : إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعنى الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته ، لا يتحقق ، وترسخ جذوره ، وتمتد فروعه إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .
العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت .
العنصر الثالث : اتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .
وتحت العنصر الأول قال :

« أما إخلاص العبودية لله فمعناه : إعطاء الألوهية حقها الكامل من **التعظيم** ، **والمحبة والخضوع** المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

---

(١) ، (٢) المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨ – ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

١ – ألا يبغي الإنسان غير الله رباً يعظمه كما يعظم الله – قال تعالى : (**قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء**) (١) .

٢ – ألا يتخذ غير الله ولياً يحبه كحب الله .. (**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السمٰوات والأرض**) (٢) . وقال تعالى : (**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله**) (٣) .

٣ – ألا يبتغي غير الله حكما يطيعه كما يطيع الله – كما قال تعالى : (**أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً**) (٤) .

١٣ – وأخيراً ..

نحب أن نؤكد على أن الله سبحانه وتعالى بميزانه العدل الدقيق يجعل عمل القلب أخطر بكثير من عمل الجوارح ، ومن ثم يحاسب عليه بأشد مما يحاسب على عمل الجوارح .. ولذا كان المنافقون – مع أعمالهم الظاهرة الشاهدة لهم بالإسلام – تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار (**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**) (٥) .

ولم تكن توبتهم كتوبة غيرهم بل تزيد عليها ثلاثا :

(**إلا الذين تابوا ،**
وأصلحوا ،
واعتصموا بالله ،
وأخلصوا دينهم لله) (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٦٤ .
(٢) الأنعام : ١٤ .
(٣) البقرة : ١٦٥ .
(٤) الأنعام : ١١٤ .
(٥) النساء : ١٤٥ .
(٦) النساء : ١٤٦ .

●● من لطائف ما يؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه آيات جاءت في (معنى الحاكمية) لكنها تلفت النظر بشدة إلى أثر عمل القلب .

– **فتصف بالكفر قوماً كل ما فعلوه أنهم كرهوا** .. (**كرهوا بقلوبهم**) ما أنزل الله : =

ثانياً : اتهام (العلماء) بإخراج العمل من مُسَمَّى الإيمان

١٤ - وهذه قضية أخرى مكملة للقضية الأولى :

إنها اتهام صريح للعلماء - دون تحديد - بإخراج العمل من مسمى الإيمان (١) - واتهام لدعاة اليوم بتبني هذا (الفكر الارجائي) وهي تهمة خطيرة نتجت في ظني عن عدم دراسة متعمقة لفكر (الإرجاء) ثم عن خلط بينه وبين ما ذهب إليه أبو حنيفة - رضي الله عنه من القول بأن العمل ثمرة من ثمرات الإيمان لازمة لكنه ليس عنصراً من عناصر الإيمان . وبيان ذلك :

= (والذين **كفروا** فَتَعْساً لهم وأَضَلَّ أعمالهم ذلك بأنهم **كرهوا** ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) [سورة محمد : ٨ ، ٩] .

- ثم تصف من أطاعوهم بنفس الوصف ، ثم تسترسل لتصفهم هم الآخرين ، بأنهم **كرهوا** (رضوانه) ، وبأن **في قلوبهم مرض** (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ، ذلك بأنهم قالوا للذين **كرهوا** ما نزل الله **سنطيعكم في** بعض الأمر والله يعلم إسرارهم [سورة محمد : ٢٥ ، ٢٦] .

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله **وكرهوا** رضوانه فأحبط أعمالهم ، أم حسب الذين **في قلوبهم مرض أن لن** يخرج الله أضغانهم) [سورة محمد : ٢٧ - ٢٩] .

●● **ونحن إذ نبرز الجانب القلبي من جوانب العبودية لله** ، لنؤكد على جانب هام في فهم معنى الألوهية غير الجانب الذي سلطت عليه الأضواء حتى ظن الناس أنه الوحيد في معنى الألوهية .

إذ نفعل ذلك لا نوهن من ذلك الجانب الآخر ، وقد سطرنا - تحدثاً بنعمة الله وفضله من أجله رسالة كاملة كان أهم نقد وجه إليها يوم المناقشة إنك أنفقت ثلث الرسالة في إثبات قضية بدهية وهي وجوب إقامة شريعة الله ، فكان ردي إنها قضية كانت إلى عهد قريب منكرة على المستوى العلمي ، وعلى المستوى الرسمي ، وعلى المستوى القانوني .. وضربت لذلك الأمثال (راجع مقدمة رسالة المشروعية الإسلامية العليا طبعة ثانية - دار الوفاء بالمنصورة) .

(١) ص ١٢٦ ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ من واقعنا المعاصر - وصفحات أخرى تالية لذلك . وقد جاء بالصفحة الأخيرة « إن إخراج العمل من مسمى الإيمان في هذا الدين الذي نزل لينشيء واقعاً معيناً تحكم شريعة الله ومنهجه للحياة ، **أمر مذهل** في مجرد تصوره فضلاً عن أن يصدر عن **علماء معتبرين** في تاريخ هذه الأمة (!!)

١ – أن المرجئة هم الذين قالوا لا تضر مع الإيمان معصية !
فأطمعوا الفجار والفساق في رحمة الله ،
وهي فرقة ضالة
لم تكتف بعدم اعتبار العمل من الإيمان (كما ذهب إلى ذلك الأستاذ الفاضل) بل جاوزت ذلك إلى استحلال المعاصي بقولهم : لا تضر مع الإيمان معصية وهي فرقة اندثرت – بحمد الله . وليس لها اليوم نصير ، فالحديث عنها في ظننا إحياء لها لا محل له .

٢ – بالنسبة للأمر الثاني فإن الأئمة الثلاثة عدا أبي حنيفة رضي الله عنه يعتبرون العمل جزءاً أو عنصراً من عناصر الإيمان ، ومن ثم فالإيمان عندهم : قول ، واعتقاد ، وعمل .

ومع ذلك فهم لا يرتبون على اختصار أحد العناصر نفس الآثار .
فإن تخلف القول أو الاعتقاد ، فإن الإنسان يكفر .
أما إن تخلف العمل فإنه لا يكفر ، أو بعبارة أدق لا يكفر كفراً يخرج عن الملة وإن اختلفوا في التعبير بعد ذلك .. فقالوا : مؤمن ناقص الإيمان ، أو قالوا مسلم وليس بمؤمن ، أو قالوا كفرا دون كفر ، أو كفرا أصغر ...

– أما عند أبي حنيفة رضي الله عنه :
فالإيمان قول واعتقاد . والعمل ثمرة لازمة .
ومن ثم فإن تخلف القول أو الإعتقاد فالإنسان كافر .
أما إن تخلف العمل فليس بكافر .

١٥ – وإذا نظرنا إلى حقيقة الخلاف نجده شكلياً .

– فالكل مجمع على ضرورة العمل .
– والكل مجمع على عدم ترتيب الكفر (المخرج من الله) – أصلاً – على ترك العمل .
– لكن الأئمة الثلاثة اشعارا بهذه الضرورة اعتبروه جزءاً من الإيمان وحكى بعضهم (الإمام الشافعي) الإجماع في ذلك .

- أما أبو حنيفة فاشعاراً بهذه الضرورة قال إن ثمرة لازمة أى لا يتصور إيمان بغيرها ... كما أنه لا يتصور قيمة الشجرة بغير ثمر ..

وعلى ذلك فالفارق شكلي ...[1] .

١٦ - فكيف يمكن بعد ذلك أن نجمع بين هؤلاء الأئمة الفضلاء الذين قالوا بضرورة العمل واعتبروه ثمرة لازمة .. مع أولئك الذين لم يكتفوا فقط باستبعاد العمل بل قالوا معه بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ؟

كيف الجمع بين أبي حنيفة الفقيه التقي النقي مع أولئك الفجار والفساق ؟!

إنه لقول كبير !

١٧ - واتهام من يعتنقون عقيدة أهل السنة والجماعة ، ويرددون مع السلف الصالح بأن الإيمان قول واعتقاد وعمل ، ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه الأخ الكريم (وجاء في العصر الأخير من يقول : من قال لا إلٰه إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام) [2]

---

(١) راجع الإيمان الحق - للفقير إلى رحمة ربه صاحب هذه الكلمات - الطبعة الثالثة ، دار المجتمع ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) ص ١٣٢ من واقعنا المعاصر .

ثالثاً : خط الانحراف منذ منتصف القرن الأول

١٨ – ذهب الأستاذ الجليل إلى أن **خط الانحراف بدأ مبكراً جداً** في حياة هذه الأمة منذ العهد الأموي ... [١] .

وراح يدلل على ذلك بظواهر معينة :

أ – الانتقال من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض .

ب – التخلي من مجموع الأمة عن مراقبة الحكام وانصرافها التدريجي إلى أمورها الخاصة .

جـ – البحبحة في أموال بيت المال على غير النسق الذي سار عليه الخلفاء الراشدون .

د – الحرص على عروبة الدولة إزاء الفرس ، بمعنى إبعاد الفرس عن تقلد مناصب الدولة ، والضغط المستمر عليهم لإشعارهم أنهم دون العرب [٢] .

١٩ – **ولنا على هذا التحليل الجميل بعض الملاحظات** :

أولاً : إن عهد الأمويين كما نعلم بدأ في السنة ٤١ للهجرة أي قبل انتصاف القرن الأول الهجري ،

وإذا كان قد صح عن رسول الله ﷺ « خير أمتي القرن الذي أنا فيه ثم الذين يلونهم » [٣] – وفي أحاديث أخرى تشير إلى القرون الثلاثة الأولى .

إذا كان ذلك ، وكان قرن رسول الله ﷺ (الأول) قد أصابه الانحراف قبل انتصافه ... فأنى لنا أن نطالب بعودة الإسلام مرة أخرى ..؟!

أليس في ذلك – أردنا أو لم نرد – اعلان عن فشل الإسلام معاذ الله ؟

ثم أليس في هذا اتهام لصحابة رسول الله ﷺ وقد عاشوا تلك الفترة التي يتهمها الأخ الفاضل بالانحراف ، وأَحَدُنا لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه !

---

(١) ، (٢) ص ١١٧ وما بعدها من واقعنا المعاصر .

(٣) رواه مسلم .

صحيح أن الأستاذ الفاضل أردف فقال : إن الانحراف في معظمه كان هبوطا عن الذروة العليا أكثر مما كان انحرافاً عن الجادة ... لكن ذلك لا ينفي ، ولم ينف الأستاذ نفسه أنه كان انحرافاً !

إن الاستدلال الأول في غير محله .

ثانياً : أن القول بتحول الخلافة إلى ملك عضوض فيحتاج إلى مراجعة على ضوء :

١ - أن الأمر كان بعد أن روّعت الأمة بمقتل خلفاء ثلاثة على التوالي (عمر ، وعثمان ، وعلى) ، وبعد أن روّعت بالفتن في آخر عهد عثمان وفي عهد علي رضي الله عن الجميع .

٢ - أن الملك المشار إليه كانت تصحبه بيعة ، وأن البيعة - لا الملك - هي أساس شرعية الحكم ، وأن شكلية البيعة (أي كونها شكلاً بغير مضمون) وإن وقع كان موضع إنكار ، وأن الله قد قيض من أمثال عمر بن عبد العزيز من ثَبَّت العدل ، وأقام الحق ، وأعاد للبيعة حقيقتها !

٣ - أن كثيراً من أحداث الدولة الأموية سجلت في العهد العباسي - وهو لها كاره - ومن ثم وجب التحقيق والتدقيق .

ثالثاً : القول بالتخلي عن مراقبة الحكام ، فلم يقدم الأستاذ الجليل دليلاً عليه . والنظام الإسلامي يتميز بتقدم العلماء فيه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، ونصحاً للحكام ، والعلماء يمثلون وجدان الأمة وضميرها ، وهؤلاء لم يكفوا طوال الحكم الأموي ، والعباسي عن تقديم النصح والنهي عن كل منكر رأوه .

وحديث أبو حازم لسليمان بن عبد الملك .

وحديث العمرى للرشيد ... نموذج على ذلك .

ومواقف الأئمة الأربعة :

أبو حنيفة .

ومالك .

والشافعي .

وأحمد ...

دليل آخر ...

إن أحمد عذب ليقول بخلق القرآن فأبى ، وأعطى القدوة من بعده .. كيف يلتزم العلماء العزيمة .. ليكونوا لسان صدق ، وقلم حق بين العالمين !

رابعاً : اتهم الحكام بالعبث بأموال المسلمين ، واتهم (الجماهير) بالسكوت على هذا العبث .

والأمر الأول يحتاج إلى تحقق وتبين ، وإن صح في البعض فلا يصح في الجميع . واتهام الجماهير (التي ثارت على عثمان من أجل مخالفات ضئيلة تأول فيها عثمان بغير منهج الشيخين قبله فقد صارت ترى هذا العبث الماجن ببيت مال المسلمين ولا تحرك ساكناً كأن الأمر لا يخصها على الإطلاق) [1] .

وهو قول محل نظر !

ذلك أن الذين ثاروا على عثمان لم يكونوا هم الجماهير .. إنما كانت حثالة مأجورة موتورة خرجت على الإمام الحق بغير حق ، وقد أفهمهم الحقيقة أكثر من مرة وشرحها لهم كما ورد في الآثار الصحيحة لكنهم أبوا إلاّ قتله ، فقتلوه ظلماً وعدواناً وهو الشيخ ابن الثمانين ، قتلوه وهو صائم يتلو القرآن ليسيل دمه ، على قوله تعالى: (**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**) .

ثم إن التعبير (بالجماهير) والتعبير (بالثورة) كان أمراً متقدماً بالنسبة لذلك التاريخ – فهي تعبيرات لم تظهر إلا حديثاً .

خامساً : أما الحديث عن العروبة وعن الفرس .. فأحسبه حديثاً يحتاج إلى تحقق كبير .

ومن بين ما لا نقر الأستاذ عليه عبارتان جاءتا في هذا السبيل أولاهما (ولم تكن تلك الجموع التي دخلت في دين الله أفواجاً ، قد أتيح لها من التربية الإسلامية ، ما أتيح للجيل الذي رباه رسول الله ﷺ على عينه) [2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٥ .   (٢) ص ١١٩ المرجع السابق .